

القيمة وقضية القديم والحديث في النقد العربي القديم

محمود درابسة

مفهوم القيمة:

تُعدّ "القيمة" (Wertung, Value) خاصية تجعل الأشياء مرغوباً فيها. فالقيمة لفظة مطاطة وواسعة المعنى، وتشكل بالنسبة للإنسان موضوعاً هاماً من حيث قابليته ليكون مبدأً أو مقياساً من مقاييس الجمال الفني أو الأخلاق أو الدين أو المعرفة أو الفلسفة. فالحرية مثلاً هي قيمة من قيم الديمقراطية، وكذلك التسامح يشكل قيمة من قيم الدين والأخلاق، كما تشكل الصورة الاستعارية في اللوحة الشعرية قيمة جمالية من قيم الأدب والإبداع^(١).

والقيمة موضع البحث هنا هي القيمة الفنية أو الجمالية. فعندما يصدر القارئ أو الناقد للعمل الإبداعي حكماً تقييماً ما على عمل إبداعي سواء أكان قصيدة شعرية أو عملاً مسرحياً أو لوحة فنية، فإنه يعبر من خلال هذا الحكم عن تقديره لهذا العمل الإبداعي بكل تفاصيله الفنية، وتبدو على القارئ أو الناقد إزاء ذلك ملامح الإعجاب والنشوة الفنية^(٢). ولذلك عندما يصدر القارئ أو الناقد حكماً ما يعبر فيه عن تقييمه للعمل الإبداعي، فإن هذا الحكم يبرز من خلال عبارات أو كلمات دالة على ذلك، مثل بديع

١- وهبة مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٤م، ص ٥٩٣.

انظر: Von Wilpert, Gro: Sachwörter buch der literatur, Alfred Köner Verlag, Stuttgart 1989, p. 1031-1032.
Trager, Claus: Wörterbuch der literatur Wissenschaft, leipzig, 1989, p. 571-573.

إيجلتون، تيري: "مناقشة حول القيمة الفنية"، ترجمة: نها صليحة، مجلة فصول، مج ٦، ع ٣، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٧.

٢- ستولنيتز، جيروم: النقد الفني، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٥٧٧.

أو جميل أو قبيح، فهذه الكلمات تجسّد القيمة الفنية التي يمتلكها العمل الإبداعي^(٣). إذن، إن القيمة الفنية في العمل الإبداعي هي حكم تقديري مرتبط بالقارئ أو الناقد الذي يعبر عن تقديره ونشوته الجمالية التي تتشكل عنده من خلال درجة اقترابه من العمل الإبداعي^(٤).

ولما كان العمل الإبداعي هو تجاوز للمألوف وخروج على المتوقع وانتهاك لحرمة اللغة، فإن هذا التجاوز الفني هو مصدر القيمة الفنية وأساسها، وهذا ما يرسم حالة من المتعة الذهنية والنفسية عند القارئ أو الناقد، مما يجعل القراء أو النقاد يتفاوتون في كيفية تقديرهم وتقييمهم الفني للعمل الإبداعي^(٥).

تُعد قضية القديم والحديث من أبرز القضايا التي شغلت النقاد العرب القدماء رداً من الزمن. فقد شكلت هذه الجدلية بؤرة الصراع بين القديم والحديث أو بين الثابت والمتغير. وقد تمحورت هذه القضية حول مجموعة من القيم لاعتبارات مختلفة، بحيث أخذ النقاد يحكمون على العمل الفني وقيّمونه من خلال القيم التالية:

- ١- القيمة الزمنية.
- ٢- القيمة المعرفية.
- ٣- القيمة الفنية.

وتُعد القيمة الزمنية الأساس والمقياس الذي نظر من خلاله الأصمعي، (ت ٢١٠هـ) وهو عالم لغة ورواية، إلى العمل الفني المتمثل بالشعر العربي. فقد جعل الأصمعي مبدأ الثبوت عند القديم مقياساً للحكم على اللغة الشعرية. فالقيمة الزمنية هي الوقوف عند الشعر القديم الذي يمثل مجالاً للاستشهاد به من حيث اللغة والنحو. ومن هنا، فقد تناول الأصمعي في كتابه *فحولة الشعراء* معيار الفحولة للحكم على الشعراء. فالشاعر القديم هو الأساس في هذا المعيار، حيث احتكم الأصمعي إلى كثرة الشعر تارة، والتخصص تارة أخرى. ومن هنا قال الأصمعي: "وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ

٣- المرجع نفسه، ص ٥٨٠-٥٨١. انظر: إ.إ. رتشاردز: *مبادئ النقد الأدبي*، ترجمة: مصطفى بدوي، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٨٩. وارين أوستين: *نظرية الأدب*، ترجمة: محيي الدين صبحي، دمشق، ١٩٧٢م، ص ٣٣١، ٣١٨.

٤- إيچلتون، تيري: *المصدر السابق*، ص ١٢، ١٤.

٥- عياد شكري، محمد: *دائرة الإبداع*، دار الياس العصرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٢.

القيس وزهير والنابعة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان" (٦).

فالقيمة الفنية تتجسد عند الأصمعي في المقياس الزمني الذي يتوقف عند الشعر القديم الذي يمثل شواهد للغة والنحو، ولم تدخله مظاهر الحضارة التي تسبب لينا في اللغة مما يجعلها غير قابلة للاستشهاد بها. ولهذا فقد رأى الأصمعي أن الإسلام قد أصاب اللغة بشيء من اللين، وذلك بدخول مفردات ودلالات لغوية جديدة لم تعهدها اللغة العربية من قبل، ولذلك قال: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى حسان كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مرثي النبي وحزمة وجعفر وغيرهم لان شعره" (٧).

ولذلك، فقد حاول الأصمعي أن ينظر للفحولة الشعرية بوصفها قيمة فنية من خلال الوقوف عند الزمن القديم، فالزمن هو الأساس في قبول العمل الإبداعي لغة وتراكيب نحوية. ولهذا، فقد جعل الأصمعي القيمة الزمنية هي المعيار في الفصل بين القديم والحديث، وذلك لكون الأصمعي عالم لغة ونحو ورواية، وبالتالي، فقد أحكم عمله بالمحافظة على اللغة نحوها وصرفها المتمثلة بالشعر القديم الذي حافظ على سلامة اللغة ووعورة ألفاظها، مما يجعلها شاهداً حياً على المحافظة على التراث العربي.

وأما الفئة الأخرى من النقاد القدماء، فقد تناولت هذه الإشكالية الفنية من خلال تجسيد القيمة المعرفية أساساً للحكم على الأعمال الشعرية وتقييمها. فقد رفض الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) القيمة الزمنية في النظر إلى الشعر العربي، وركز على المبدأ التوفيقي الذي يرفض الاهتمام بالقديم لقدمه أو الحديث لحدثه، وعدّ القيمة المعرفية الأساس في الحكم على الشعر وقبوله. قال: "وقد رأيت أناساً (منهم) يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أيّ زمان كان" (٨).

٦- الأصمعي: فحولة الشعراء، تحقيق: محمد عبدالمعنى خفاجي وطه الزيني، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٤٢.

٧- المصدر نفسه، ص ٤٢. انظر: أدونيس: الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، ١٩٧٧م، ٤٠/٢.

٨- الجاحظ، أبو عمر عثمان بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، ١٩٣٨-١٩٤٥م، ٣/١٣٠. انظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٩٥.

ولذلك، فقد رفض الجاحظ مبدأ الزمن في النظر إلى الشعر، وعدّ الشعر مجالاً للمعرفة، ولعل ثقافته وانتباهه الاعتزالي قد أثرا في موقفه هذا من الشعر العربي، إذ نظر إلى الشعر وسيلة معرفية بعيداً عن البعد الفني الذي يميز العمل الإبداعي عن غيره من الأعمال الأخرى.

ولم يختلف ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) عن الجاحظ في نظره التوفيقية للشعر، إذ لم يهتم بالأساس الزمني للحكم على الشعر بل نظر إلى مضمونه بوصفه قيمة معرفية بعيداً عن الثبوت عند الشعر القديم. يقول: "ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاً حظه، ووفرت عليه حقه. إني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصّ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره وكل شرف خارجية في أوله. فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن، حتى لقد هممت بروايته. ثم صار هؤلاء قداماً عندنا ببعد العهد عنهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله أو حداثة سنه، كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه" (٩).

لقد وضح ابن قتيبة موقفه من قضية القديم والحديث أكثر من الجاحظ، إذ نفى ابن قتيبة البعد الزمني والاجتماعي في تفضيل شاعر على آخر، فالقيمة الزمنية ليست القيمة التي يقرر الناقد فيها تفضيل شاعر على آخر بل إن القيمة المتمثلة بالشعر كقيمة ثقافية ومعرفية هي القيمة الأساس في المفاضلة بين القديم والحديث. وبالتالي، فقد أعلى ابن قتيبة من شأن القيمة الذاتية للشعر بوصفها معياراً للجودة الشعرية، وهذا الإعلاء ينزل من قيمة التقدم في الزمان ولا يتيح للقارئ أو الناقد إلا أن يلمس تفاصيل قليلة من تفاصيل العمل الإبداعي، فالشعر يشكل عنده قيمة ذاتية ومعرفية أكثر من الزمان الذي يشكل حاجزاً بين الثابت والمتغير (١٠).

٩- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: الشعر والشعراء، ليدن، ١٩٠٤م، ص ٥-٦.

١٠- سلوم، تامر: الأصول، دار الحقائق، اللاذقية، ١٩٩٣م، ص ٣٠٠.

لقد تمسك النقاد العرب القدماء قبل نهاية القرن الثالث الهجري بالقيمة الزمنية واللغوية والمعرفية للشعر، بينما جاء الشعر المحدث بدءاً من القرن الثالث الهجري ممثلاً لمبدأ التجاوز والخروج على ما هو مألوف في الشعر.

وقد انتبه النقاد العرب إلى ظاهرة البديع الذي يمثل ثورة لغوية عميقة في الشعر العربي وخاصة عند أقطاب هذه المدرسة من أمثال مسلم وأبي تمام وبشار الذين فجروا مكانن اللغة بعيداً عن الوصف وظاهر التشبيه.

ولهذا فقد أشار المبرد (ت ٣٨٥هـ) في كتابه الكامل في اللغة والأدب إلى ما أصاب الشعر العربي من تحول في البيئة الشعرية، حيث رفض مبدأ القيمة الزمنية في تقييم الشعر والحكم عليه، وشدد على ضرورة الإجابة والإبداع في الشعر، فمقياس الجودة الشعرية هو الإبداع الفني. يقول: "وليس لقدم العهد يفصل القائل، ولا لحدثان عهد يُتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق" (١١). وهذا يشير بوضوح إلى عدّ النص الإبداعي مجالاً للتقييم والحكم. فقيمة النص الإبداعي ذاتية من خلال التفاصيل الفنية المختلفة التي تجعل النص الإبداعي نصاً إبداعياً، وبالتالي فإن القيمة الزمنية لا تقدم شيئاً للعمل الإبداعي، فالقدم لا يفيد في جعل النص مجالاً للإبداع الفني.

ولعل مجيء أبي تمام، (ت ٢٣١هـ) شاعر الحدائث والإبداع، في القرن الثالث الهجري قد أجرى تحولاً في بنية اللغة الشعرية، فأصبحت القصيدة الشعرية بؤرة للإبداع الفني، ومن هنا، أصبحت قصائد أبي تمام موضوع اهتمام النقاد العرب القدماء الذين سئموا من القيمة الزمنية التي اهتم بها النقاد من قبل. ولهذا فقد وقف أبو بكر الصولي (ت ٣٣٦هـ) في كتابه أخبار أبي تمام موقفاً قوياً إزاء إعادة النظر في إبراز جودة الشعر من خلال القيمة الفنية لا الزمنية. يقول الصولي إزاء التحول الذي أصاب اللغة الشعرية عند المحدثين: "اعلم - أعزك الله - بأن ألفاظ المحدثين مذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معانٍ أبداع وألفاظ أقرب وكلام أقر، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء، وأنه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عياناً، كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحارى والبرّ والوحش والإبل والأخبية. فهم في هذه أبداً دون القدماء، كما أن القدماء فيها لم يروه أبداً دونهم، وقد بيّن هذا أبو نواس بقوله:

١١ - المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، د.ت، ١٨/١. انظر:

أدونيس، الثابت والمتحول، ١٧٣/٢.

صفة الطلول بلافة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ثم يقول فيها:

تصف الطلول على السماع بها وإذا وصفت الشيء متبعاً
أفدوا العيان كأنت في الفهم لم تخل من زللٍ ومن وهم

ولأن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين ويصبون على قوالبهم ويستمدون بلعابهم وينتجعون كلامهم، وقلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده. وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها، أو ما أو إليها، فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان، والناس له أكثر استعمالاً في مجالسهم وكتبهم وتمثلهم ومطالبهم" (١٢).

فالصولي لا ينكر ما قدّمه الأوائل من أعمال إبداعية ونقدية، وإنما يؤكد أن ما فعله المحدثون هو كسر لحاجز الزمن، ونفي للقيمة الزمنية التي تمسك بها النقاد القدماء وعدّوها معياراً للجودة الشعرية. فالجودة الشعرية لم تعد تتمحور حول القيمة الزمنية بل حول الجودة الفنية، لأن الشاعر المحدث قدم إمكانيات فنية هائلة في لغته الشعرية، وابتكر معاني شعرية أعمق من المعاني التي قدمها الشعراء القدماء (١٣).

ويعدّ الأمدي (ت ٣٧١هـ) في كتابه الموازنة الناقد الذي أبرز جوانب الإبداع الفني عند أبي تمام على الرغم من تفضيله البحري عليه. فالأمدي وازن بين مفهومين للشعر أو بين منهجين: أحدهما يمثل القديم وهو البحري، والآخر يمثل الحدّثة وهو أبو تمام. فالموازنة أبرزت القيم الفنية التي مثلها شعر أبي تمام، قال الأمدي: "ومثل من فضل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام. وإن كان كثير من الناس قد جعلها طبقة، وذهب إلى المساواة بينهما. وأنها مختلفان، لأن البحري أعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر، وكان يتجنّب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام، فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى، ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ومستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة، فهو بأن

١٢ - أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام، القاهرة، ١٩٣٧م، ص ١٦-١٨. انظر: سلوم، تامر، الأصول، ص ٣٠٦-٣٠٧.

١٣ - انظر: أدونيس، الثابت والمتحول، ١٧٩/٢.

يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه، وعلى أي لا أجد من أقرنه به، لأنه ينحط عن درجة مسلم، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الأسلوب، لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته" (١٤).

فالميزات التي ذكرها الأمدى لشعر أبي تمام، تبين بوضوح بروز القيمة الفنية للشعر، فأبو تمام شاعر مخترع للمعاني، ومجدد في الاستعارات والتشبيهات، وغامض في معانيه وصوره، ولعل هذه النعوت تؤكد القيمة الفنية والذاتية للشعر بعيداً عن القيمة الزمنية التي يمثلها البحري، وذلك على الرغم من ميل الأمدى بوضوح إلى جانب البحري الذي يمثل القيمة الزمنية من خلال التزامه بمنهج الأوائل (١٥).

إن النقد الذي وجه إلى أبي تمام يمثل احتدام الصراع بين جدلية القديم والحديث. فأبو تمام يمثل نموذج التحول في اللغة الشعرية، بينما يمثل البحري القديم بأوصافه وتشبيهاته، ولذلك فالمعيار الأساس الذي نظر الأمدى من خلاله إلى النزعة الحدائنية عند أبي تمام هي من خلال القيمة الفنية لا غير (١٦).

ولذلك فقد برزت ثلاث قيم عند النقاد العرب القدماء من خلال نظرتهم التقييمية للشعر العربي: أولها القيمة الزمنية التي وقف أصحابها من خلالها عند الشعر القديم بألفاظه ووعورة لغته، وفتة أخرى من النقاد وقفت وفتة توفيقية دون تعصب للقديم أو الحديث، حيث آثرت القيمة المعرفية للشعر دون اعتبارات للزمن، في حين كانت القيمة الفنية تمثل أوج ازدهار الحركة النقدية عند العرب في القرون الثالث والرابع والخامس الهجري، حيث أدرك النقاد أن نظرتهم للشعر ينبغي أن تتجاوز الزمن إلى البنية اللغوية والإمكانات الفنية في العمل الإبداعي.

-
- ١٤- أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المسيرة. د.ت، ص ١٠-١١.
- ١٥- انظر: أدونيس، الثابت والمتحول، ٢/١٨٣-١٨٥.
- ١٦- انظر: سلوم، تامر، الأصول، ص ٣١٧.